الحياة وكيف تتكون

بقلم الأستاذ محمد على الحومانى [لبنان]

الحياة حياتان: أولاهما حيوانية،وهى السر الكامن فى الجسم الحى الحساس ينبعث عنه الفعل أوينفعل هو بما يعرضه فى الحياة ، يشترك فيها الحيوان والإنسان،ويعبر عنها بالحياة الأولى. وثانيتهما إنسانية محضة ، وهى جماع مافى الانسان من جوهر، أى أنها نواة العلم والفن فيه.

فالإنسان إذن يحيا حياتين :حياة جنسية وهى التى يشارك بها الحيوان فى الحس والحركة، وحياة نوعية وهى التى تسعى به إلى المثل الأعلى .

وإذا كان العلم والفن من مظاهر هذه، كان مبعثها العقل والفكر ثم العاطفة ، ومن هنا تمتاز الإنسان عن الحيوان :على أنا لانستطيع أن نحرم الحيوان من هذه الثلاث ؛ فهو ذو عقل وفكر وعاطفة، ولكنها فيه أضعف منها فى العقل ،ولم تكن لتنمو معه نموها فى الإنسان.

والإنسان يريد بطبعه (أى مع الحياة الأولى) أن يحيا مستقلاعن غيره ـ كفرد ـ لايهمه إلا أمر نفسه، كما نجد ذلك فى الحيوانات،وحشية وأليفة. ويريد بعقله (أى مع الحياة الثانية) أن يحيا مدنياً ، كأمة ، مفتقراً إلى أخيه الإنسان . والعقل أدرك ضرورة هذه الحياة الاجتماعية منذ الأزل فقررها فى النفوس حتى استحالت غريزة ، فكان من الحكمة أن قيل : «الإنسان مدنى بالطبع » .

أدرك العقل أن هذا النوع من الحيوانات يجب أن يسود العوالم بفضله هو [1] لما امتاز الإنسان به عنها ، فكان من الحق له أن يعتبر ما سواه مخلوقاً له إذ هو الأشرف .أدرك ذلك فتمشى إلى سن القوانين الاجتماعية لحفظ هذه الحياة ، وكان فاتحة هذه النظم نظام الخلق وترسيخه فى النفس حتى يحول غريزة .

من الحق أن نكبر مجهود العقل الأول فى خلق الإنسان مدنياً بعد أن كان وحشياً، ومن الحق ألا نجور فى الحكم عليه فننسبه إلى الضعف إذا قسناه على عقل الإنسان اليوم ، ومن الحق فوق كل ذلك ألا نقيس به العقل الحديث، وهو يخلق ويبتدع،إذ هو فى خلقه وإبداعه إنما يبنى على أنقاض بناء العقل الأول .

العقل الأول قطع ألوف الأعوام جاهداً فى إخراج البشرية من ظلمة التوحش إلى نور المدنية، ومن دور الهمجية إلى دور الرقى ، وأكبر عقل فى هذا الجهاد عقل كشف عن آثار المبدع الأول فى الكون،ليصل به إلى تثبيت دعائم الأخلاق فى تمدين الانسان عن طريق الدين.

---

١) أى العقل نفسه .

فقد خلق هذا العقل فكرة الأخلاق، وهي الروابط الاجتماعية، وأراد تقريرها في النفوس ليحيلها جزءاً منها تتمشى معها في جميع أدوار الحياة؛ فرأى من الشاق الذي يكاد يستحيل عليه أن ينسبها إليه وهو إنسان ؛ ولقد يكون مطاعاً في الخاصة، وهي تدرك ضرورة هذه الروابط بين الانسان . والانسان لو شاء خلق هذه الصلات في نفوس الخاصة، وهي أشباح تكاد تتضاءل في سواد العامة .

رأى في البدء ضرورة كون الانسان مدنياً فخلق فكرة الأخلاق ليكون آمناً إلى جنب خيه الانسان ؛ ورأى أن الخوف والطمع أقوى الغرائز في النفس وأشدها تأثيراً في الانسان، فخلق فكرة الجزاء ثواباً وعقاباً، ورأى أن فكرة جزاء القوي للضعيف إنما تتمشى في الجهر من قطع هذه الصلات (الأخلاق)، وأما السر فيستمر حائلاً بينها وبين رسوخها في النفس، فخلق إذ ذاك فكرة الدين .

نقول إن العقل قد خلق فكرة الدين، ولا نحاذر شغب من ينتمي إلى الدين من شيوخنا السذج، بعد أن أثبتنا أن العقل في الانسان يشير إلى المثل الأعلى في الكون وهو مبدعه، فما يأتيه فإنما هو أثر من آثار القوة العليا مناط هذا الخلق الخاضع لها قسراً .

نقول ذلك ولعلنا أشد نقمة على شبابنا المتنطع في شهواته، والذي يرمي بأقواله وأعماله إلى الإلحاد، غير مبال ما يجره وراءه من ضرر على نفسه وغيره؛ ولقد كان خليقاً أن يحمل على عذر لو كان إلحاده نتيجة علم أعمل فكره فيه من وراء البحث والتدقيق، ولكنه كان فيه كالببغاء يحكي من دعاه إلى هذه الدعوى، يموج في خلقه وشهوات إطفاء هواه بالاسترسال فيها. رأى الدين أمنع هذه الحواجز بينه وبينها فراح يحمل عليه حملات الأحمق بمقلاعه الواهي على أمنع الحصون وأشدها قوة وبأساً ....

الأخلاق وتأثيرها في تطور الحياة:

أما وقد عرفت الحياة التي يتمشى إليها الانسان في طريقه إلى المدنية، فاعرف أيضاً أن مناط هذه الحياة تلك الروابط الاجتماعية والصلات المعبر عنها بالأخلاق؛ والعلم الضروري من لوازمها، أما البلوغ في العلم فهو من كمالاتها ؛ وإذا توفرت في الأمة علومها إلى جنب هذه القواعد (الأخلاق) كانت سيدة الأمم ذات السيطرة والنفوذ ؛ فليس لأمة فقدت الأخلاق حياة تنهض بها مهما بلغت من الرقي العلمي؛ فهي وإن كانت حية الأفراد بالعلم ميتة الجماعات لما يعوزها من خلق يربط الفرد بالفرد لتكون جماعة فتكون أمة ..

فحياة الأمة بالأخلاق مع الجهل كاملة، ولكنها مع العلم أكمل . أما هي بالعلم دون الأخلاق فناقصة، ولكنها بالجهل دونها أنقص . فالاسلام نشأ تحضنه الأخلاق، وشب عليها مع العلم وشاب وهي تضمحل فيه.

وإذا كان الوفاء والعطف والمحبة والسخاء والغيرة والحمية ونحوها من دعائم الأخلاق، لزمنا اعتبار التضامن الانساني رأس هذه الروابط، لأنه جزء مقوم في حياة الأمة ويتألف من هذه الصلات كلها أو بعضها .

وقد نرى الأمة يعوزها شيء من الأخلاق، على حين نجدها تزاحم الكواكب برقيها، ذلك أنا إنما نعني بالأخلاق معظمها في الأمة، لا أن رقي الأمة متوقف على مفهوم الأخلاق كلياً بحيث لا يشذ عنه جزئي واحد . ففي الغرب شعوب كثيرة نجدها فقيرة من هذه الصلات من حيث الطبع، ولكن القانون يحجر عليها خرقها، ففي نظمها السياسية ما يغني عن النواميس الطبيعية فيها، على أنا قد نجد أن للأخلاق الغربية قبل النهضة أثراً في مدنيتها بعدها، فإن المجد الذي شاده الإسلام في بدئه بفضل الأخلاق، ما زال يخدم المسلمين بضعة قرون لا سيما وقد دعمه العلم.

على أني لم أجد في الغربي ما أنقمه عليه من حيث الأخلاق: فقد رأيت فيه الصدق والأمانة والسخاء والعطف الانساني والغيرة على وطنه والحمية لقومه، وإذا بدا لنا عدم ذلك في السياسة الخرقاء التي تمثل لنا الغربي: فإن للسياسة أوضاعاً قد لا تتفق وآراء الشعوب المسيطرة عليها بها، ولقد شهدت بنفسي بلاد الغرب وتغلغلت في صميمها وامتزجت بشعوبها وأشرفت على نفسيات الخاصة فيهم والعامة من معظمهم، فرأيت أن السياسة الخارجية للاسكوتي واللاتيني تكاد تتباين وسياستها داخلياً، وما يفعل البريطاني أو الإفرنسي خارج بلاديهما قد يخفيه في الداخل، ولنا أن نحمل الشعب القوي على عذر فيما إذا رأى أن حكومته على حق في استعباد الشعوب الضعيفة، وهو مشبع الروح اعتقاداً بأن سيطرة أمته على غيرها من الأمم حق، لما تسبغه على العالم من خير في إخراجه من ظلمات التوحش إلى نور المدنية .

وقد نرى بعض الأخلاق فيهم تتحول من جهة نافعة إلى جهة أنفع، فالكرم الخاص الذي نعرفه ونكاد نقصره على بذل الطعام والصدقات اليومية، قد نجده تحول في الغرب إلى البذل في سبيل العلم والرأفة بالانسانية، فاذا ترى أحدهم عمد إلى مستشفى يبنيه أو معهد يخلده بدافع الرحمة والعطف الانساني، وإذا نقصهم ما تزداد تمسكا به من غيرة على العرض في معرض الشهوات فقد ينقصنا ما يزدادون به تمسكا من غيرة على البلاد في معرض التنافس الاجتماعي، وحسبي أن التضامن والاتحاد والصدق والأمانة وحب الوطن ونحوها من الروابط الاجتماعية التي فقدناها هي أشد رسوخا في نفوسهم من حب المادة التي جبلوا عليها وتهالكوا فيها ؟

[البنطية . لبنان] محمد علي الحوماني